

# الفصل الرابع

---

القضاء على الخوارج

obeikandi.com

## القضاء على الخوارج

### اختلاف الخوارج

وقع الاختلاف بين الأزارقة - أصحاب قطري بن الفجاءة - سنة ٧٧ للهجرة، فخالفه بعضهم واعتزله عبد ربه الكبير وأقام بعضهم على بيعة قطري. وسبب ذلك أن المهلب بعد أن أخذ الحجاج منه عتاب بن ورقاء لقتال شبيب أقام بسابور، يقاتل قطريا وأصحابه نحوًا من سنة، ثم أنه زاحفهم يوم البستان، فقاتلهم قتالاً شديداً. وكان كرمان في أيدي الخوارج وفارس في يد المهلب. فبعدت على الخوارج ديارهم، وانقطعت عنهم المواد من فارس فخرجوا حتى أتوا، مدينة كرمان، فقاتلهم المهلب بها أكثر من سنة، وملك عليهم فارس جميعها، فأخذها الحجاج منه وبعث إليها عماله. فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فكتب إلى الحجاج يأمره بأن يترك للمهلب خراج فارس، وجملة كور أخرى ليستعين به على قتال الخوارج فتركها، فبعث المهلب عليها عماله، فكان له ذلك قوة.

وبعث الحجاج إلى المهلب البراء بين قيصة لينهضه إلى قتال الخوارج، فأخرج المهلب بنيه، كل واحد منهم في كتيبة، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم، ووقف البراء على تل قريب منهم ليشاهد القتال. فاقتتل الفريقان أشد قتال رآه الناس، من الصبح إلى منتصف النهار ثم انصرفوا. فجاء البراء إلى المهلب فقال له: لا والله، ما رأيت فرساناً كبنيك قط، ولا كفرسانك من العرب فرساناً، ولا رأيت قطاً أصبر وأبأس من القوم الذين يقاتلونك فانت والله معذور...

ثم أن المهلب خرج بالناس وبانائه إلى قتال الخوارج عند العصر فقاتلهم فقتلهم في أول النهار وانصرفوا عند المساء.

فقال المهلب للبراء: كيف رأيت؟

قال: رأيت قومًا والله ما يعينك عليهم إلا الله.

فرجعه المهلب إلى الحجاج، وكتب إليه أن يسأله عما شاهد، فأخبره بما رأى وقال له ما قاله للمهلب، ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهرًا لا ينال منهم كبير شيء إلى أن قتل عامل لقطري على ناحية من كرمان يقال

له المقعطر الضبي رجلاً من الخوارج كان ذا بأس وكان كريماً عليهم، فجاؤا إلى قطري يسألونه أن يسلم إليهم الضبي ليقتلوه فأبي، فأنكروا عليه ذلك. وكان رجل من الأزارقة حداد يسمى ابزي يعمل لهم نصالاً مسمومة فيرمون بها أصحاب المهلب، فشكوا إليه ذلك، فقال لهم: سأكفيكموه إن شاء الله، ثم وجه رجلاً من أصحابه إلى ابزي بألف درهم ومعه كتاب نصه بعد الديباجة: أما بعد فإن نصالك قد وصلت إلي، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها. وقال للرجل: الق هذا الكتاب والدراهم في عسكر قطري، واحذر على نفسك. فوقع الكتاب والدراهم إلى قطري، فدعا بابزي فقال:

- ما هذا الكتاب؟

قال: لا أدري، قال: فهذه الدراهم؟ قال: وما اعلم علمها. فأمر به فقتل.

فجاء عبد ربه الصغير فقال: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟

فقال له: ما حال هذه الدراهم؟

قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً، ويجوز أن يكون أمرها حقاً.

فقال له قطري: قتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما

يراه صلاحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه.

فتنكر له عبد ربه في جماعة ولكنهم لما يفارقوه.

فلما بلغ ذلك المهلب درس إلى قطري رجلاً نصرانياً وقال له: إذا رأيت

فاسجد له، فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك.

ففعل النصراني ذلك. فقال قطري: أنا السجود لله.

فقال: ما سجدت إلا لك.

فقال له رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله.

فقال قطري: أن النصراني قد عبدوا عيسى بن مريم فاضرب ذلك عيسى

شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر قطري عليه ذلك وقال:

أقتلت ذمياً؟ فكان ذلك مما قوى الاختلاف بين الخوارج.

وبلغ المهلب فوجه إليه رجلاً يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين إليهم، فمات أحدهما في الطريق، ووصل إليهم الآخر، فامتحنوه في عقيدتهم فلم يؤمن بها. ما قولهم فيها؟

فقال بعضهم: أما المييت فمؤمن من أهل الجنة وأما الآخر فكافر. وقال آخرون: بل هما كافران.

فاشتد الخلاف بينهم فثاروا على قطري وخلعوه، وولوا عليهم عبد ربه الكبير، وبقي مع قطري عصابة قليلة منهم، ووقع القتال بينهم، واعلم المهلب الحجاج بما كان من اختلافهم واقتتالهم، فأمره الحجاج أن يناهضهم وهم على اختلافهم، فأبى المهلب وكتب إلى الحجاج: "أن الرأي أن يتركهم يقتل بعضهم بعضاً فإن في ذلك إما هلاكهم وإما إضعافهم، وليس من الرأي أن يناهضهم لئلا يتفوقوا عليه... وقد أصاب فإنهم مكثوا نحو شهر يقتل بعضهم بعضاً. ورحل عنهم قطري مع من تبعه، ثم رجع إليهم فقام فيهم صالح بن مخراق أحد رؤسائهم وقال: يا قوم أنكم أقررتم عين عدوكم، وأطمعتموهم فيكم لما ظهر من اختلافكم. فعودا إلى سلامة القلوب، واجتماع الكلمة. ثم خرج إلى أصحاب المهلب فنادى:

يا أيها المحلون. هل لكم في الطراد فقد طال العهد به.

فتهايج القوم وأسرع بعضهم إلى بعض وأبلى المغيرة يومئذ بلاء حسناً، وصرعه عبيدة بن هلال.

فاستنقذ المغيرة فرسان من الأزد، وقال له رجل:

- كنا نعجب كيف تصرع، والآن نعجب كيف تنجو.

وبعث الحجاج إلى المهلب رجلين أحدهما من كلب والآخر من سليم يستحثانه على القتال، فتمثل المهلب يقول أوس بن حجر:

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترموا

وقال ليزيد ابنه: حرك الخوارج فحركهم فتهايجوا، وحمل رجل منهم على رجل من أصحاب المهلب فطعنه فشك فخذته بالسرّج. فقال المهلب للسلمي والكلبي: كيف نقاتل

قومًا هذا طعنهم، وجاء الرقاد - وهو من أعظم فرسان المهلب - وبه نيف وعشرون جراحة وضع عليها القطن وحمل يزيد بن المهلب على جماعة منهم فولوا فحماهم فارسان، فحمل رجل يقال له قيس الخشني على أحد الفارسين فصرعه. وحمل عليه الآخر وتعانقا فسقطا جميعًا على الأرض، فصاح قيس: اقتلونا جميعًا، فأسر فرسان من الفريقين فحجزوا بينهما: فإذا معانقة امرأة. فقام قيس مستحيًا. فقال له يزيد: - أما أنت فبارزتها على أنها رجل.

فقال: أرايت لو قتلت، أما كان يقال: قتلت امرأة؟

ثم حاربهم المهلب بعد ذلك بالسيرجان حتى نفاهم عنها إلى جيفت، وهناك اختلفت كلمتهم مرة أخرى. وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال كان يختلف إلى امرأة رجل حداد في بيته ويدخل عليها بغير إذن فشكوه إلى قطري، فقال لهم: أن عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم. فقالوا: أنا لا نقاره على الفاحشة: فبعث إليه قطري فقام فيهم وقال: بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين جاؤا بالإفك عصة منكم لا تحسبوه شرًا لك بل هو خير لكم.. الآيات. فبكوا واعتنقوه وقالوا: استغفر لنا. فقال لهم عبد ربه الصغير: لقد خدعكم. فرجعوا إلى اعتقادهم الأول، ولكنهم لم يجدوا سبيلًا إلى إقامة الحد عليه. وكان قطري قد استعمل رجلاً من الدهاقين فظهرت له أموال كثيرة. فقال لقطري:

أن عمر بن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا العمل.

فقال قطري: إن استعملته وله ضياع وتجارات، فأوغر ذلك صدورهم وقالوا له: ألا تخرج بنا إلى عدونا، فقال. لا. ثم خرج. فقالوا: كذب وارتد، فاتبعوه يومًا فأحسن بالشر منهم فدخل داراً مع جماعة من أصحابه، فصاحوا به. يا دابة اخرج إلينا. فخرج إليهم وقال: ” زجعتم بعدي كفارًا. فقالوا: أما أنت فإنك دابة: قال الله تعالى: ”وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها“ وأما نحن فلسنا كفارًا. فأنت كافر بتفكيرك إيانا. فقال له بعض أصحابه: قل لهم: إني استفهمت ولم أخبر. فقبلوه منه. ولما رأى منهم هذا التغير بايع المقعطي العبدي. فكرهوا ذلك وسألوه إعفاءهم من مبايعة المقعطر، فأبى، فاختلفوا وتهايجوا وحمل فتى من العرب على صالح بن مخراق فقتله.

ثم اقتتلوا فيما بينهم قتالاً شديداً. وارتحل قطري مع أتباعه إلى طبرستان.  
وجلس المهلب للناس بعد ارتحال قطري، فدخل إليه وجوههم يهثون،  
ووجه المهلب إلى الحجاج يبشره بالنصر على الخوارج وتمزق شملهم، فقدم إليه  
رسول المهلب وأنشده قصيدة في مدحه ومدح المهلب.  
فلما انتهى من إنشاده أقبل عليه الحجاج وقال له:

- فكيف خلفت جماعة الناس؟

قال: خلفتهم بخير: قد أدركوا ما أملوا وآمنوا ما خافوا

قال: فكيف كان بنو المهلب فيكم؟

قال: كانوا حماة السرح نهاراً، فإذا الليلوا ففرسان البيات.

قال: فايهم كان أنجد؟

قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري ابن طرفها.

قال: فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟

قال: كنا إذا أخذنا عفونا، وإذا أخذوا يئسنا منهم. وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم.

قال الحجاج: أن العاقبة للمتقين. كيف أفتكم قطري؟

قال: كدناه ببعض ما كادنا فصرنا إلى الذي نحب.

قال: فكيف كان لكم المهلب وكنتم له؟

قال: كان لنا منه شفقة الوالد وله منابر الولد.

قال: فكيف كان اغتباط الناس؟

قال: فشا فيهم الأمن وشملهم النفل.

قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟

قال: لا يعلم الغيب إلا الله (أي ما كنت تسألني عنه كان مغيباً عني ولا

يعلم الغيب إلا الله).

فقال الحجاج: هكذا والله تكون الرجال. كان المهلب اعلم بك حيث وجهك.

ثم استقدم الحجاج المهلب. فلما قدم عليه أجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه

وبره وقال: يا أهل العراق، أنتم عبيد المهلب.

## قطري في طبرستان

ولما توجه قطري إلى طبرستان، وجه إليه الحجاج سفيان بن الأبرد في جيش عظيم من أهل الشام، وأمر إسحاق بن محمد ابن الأشعث، رئيس جيش الكوفة بطبرستان، أن ينضم بجيشه إلى سفيان، فسار سفيان بجيش الشام وجيش الكوفة، في طلب قطري حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان، فقاتلوه ففرق عنه أصحابه، ووقع عن دابته في أسفل الشعب، وتدحرج حتى خر إلى أسفله. وكان معه خمس عشرة امرأة عربية، كن في الجمال والبزاة وحسن الهيئة كما شاء ربك، ما عدا عجوز فيهن. فساقهن بعض رؤساء الجند إلى سفيان. فلما دنا بهن منه، انتحيت له العجوز بسيفها فضربت به عنقه فقطعت المغفر وقطعت جلدة من حلق درعه، وكاد سيفها يصيب جسمه، فاخترط سيفه وضربها به فخف رأسها فخرت ميتة، فضحك سفيان من العجوز، وقال لذلك الجندي: ماذا أردت من قتل هذه المرأة؟ فقال له:

- أصلح الله الأمير، أوما رأيت من ضربتها إياي! والله إن كادت لتقتلني!

ونظر عالج من أهل البلد إلى قطري حيث تدحرج من الشعب فأتاه - وكان قد اشتد به العطش. فقال له: أعطني شيئاً حتى أسقيك فقال له ومحك والله ما ألا ما ترى من سلامي وأنا أعطيته إذا سقيني. فقال له أعطنيه فأبى. فارتفع العالج في الشعب وحدر عليه حجراً عظيماً من فوقه، فأصاب إحدى وركيه فأوهنها. وصاح العالج بالناس ليقتلوا قطرياً وهو لا يعرفه - وإنما ظن أنه من أشرف الناس لحسن هيئته وكمال سلاحه. فأقبل إليه نفر من أهل الكوفة، فقتلوه وأتى برأسه إسحاق بن محمد بن الأشعث، فبعث به إلى الحجاج.

ثم أن سفيان بن الأبرد أقبل منصرفاً إلى عسكر عبيدة بن هلال، وقد تحصنوا في قصر بقومس، فحاصرهم حتى جهدوا وأكلوا دوابهم. ثم أنهم خرجوا إليه فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج. وكان ذلك سنة ٧٧.

وفي سنة ٧٨ ولي عبد الملك بن مروان الحجاج خراسان، وعبيد الله بن أبي بكرة على سجستان.

وفي سنة ٨٠، غزا المهلب كس، وصالح جنده أهلها على فدية حملوها إليهم. وأغزى ابنه حبيبا ربيخن من أعمال بخاري، وأحرق قرية للترك فسميت المحترقة. وفي سنة ٨١ بلغ المهلب شقاق عبد الرحمن بن محمد الأشعث، وخروجه على الحجاج وعبد الملك. فكتب إليه ينصحه ويدعوه إلى الطاعة والدخول في الجماعة. وأرسل إلى الحجاج ينصحه بترك قتال أهل العراق، وهم جيش عبد الرحمن، حتى يسقطوا إلى أهليهم ويشتموا أولادهم، فتضعف قوتهم. فخالفه الحجاج وخرج إليهم فهزموه. فلما قفل راجعا دعا بكتاب المهلب فقرأه، ثم قال:

- لله أبوه أي صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل.

### موت المهلب

وفي سنة ٨٢ توفي المغيرة، وأتى خبره أخاه يزيد، فأحب أن يبلغه أباه فأمر النساء، فصرخن، فقال المهلب: ما هذا؟ فقبل مات المغيرة. فاسترجع وجزع جزعا شديدا، ظهر على وجهه. وكتب إليه الحجاج بعزيه. وكان المهلب حينئذ (بكش) لحرب أهلها، فصالح أهلها على فدية، ومضى منصورا يريد مرور، فلما كان بزاغول، من مرو الروذ أصابه مرض، فدعا حبيبا ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت، وقال:

- أترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا.

قال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم.

قال: فهكذا الجماعة. فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم: فإن صلة الرحم تنسى في الأجل، وتترى المال، وتكثر العدد وأنها كم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلّة. فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم، ولا تختلفوا، وتباروا تجتمع أموركم. وعليكم بالطاعة والجماعة. وليكن أفعالكم أفضل من قولكم، فإن أحب للرجل أن يكون لعمله أفضل على لسانه. واتقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه، فينتعش من زلته، ويزل لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقه: فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له. وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب، واصطنعوا معهم العرف: فإن الرجل من العرب تعدد العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة:

فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة: وإذا كان اللقاء نزل القضاء: فإن أخذ رجل بالحزم، فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه، ثم ظفر فحمد، وإن لم يعد يظفر بعد الأناة قيل: ما فرط ولا ضيع، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن، وتعلم السنن وأدب الصالحين وإياكم والخفة، وكثرة الكلام في مجالسكم. ثم استخلف عليهم يزيد وجعل حبيبًا على الجند حتى يقدم يزيد فيكون عليهم، ومات وكان أوصى إلى حبيب فصرى عليه.

## القول الفصل في عقيدة الخوارج وإغراقهم في الدين

### أسباب انتصارات الخوارج

لقد تطفنا في التبسط قليلاً بأخبار الخوارج، وزحوفهم وحملاتهم ومعاركهم، وكل غرضنا من ذلك أن نلقي في روع القارئ صورة حية عن هؤلاء الأعراب الأشداء الذين حاربوا الأمويين فأثخنوا فيهم، وقارعوا جنوداً تفوقهم عدداً وعدداً فاستأصلوهم ومزقوهم شر ممزق.

وهنا يحار القارئ في معرفة الأسباب التي مكنت للخوارج هذه الانتصارات الرائعة، على جيوش تفوقهم عدداً وسلاحاً كما قدمنا، ثم لا توفق هذه الجيوش العديدة إلى تشتيت شملهم إلا بعد حروب دامت أربعين سنة..

ومع ذلك فالدولة لا تزال في نشاطها وقوتها، ورعاياها يناضلون معها ضد الخوارج ويحاربونهم حرباً شديدة مفاجئة، ثم لا يوفقون معهم في كثير ولا قليل، ولعل السبب في ذلك، أن الخوارج كانوا عرباً بكل ما في الكلمة من معنى، كانوا أبطال حروب وفرسان معامع، ينزلون إلى الهيجاء في شجاعة الأسد وبأس الحديد، ومضاء السيف، ومروق السهم، وانقضاض النسر، والتهاب النار، ويحرصون على الموت في سبيل عقيدتهم حرص أهل الدنيا على الحياة، ويستعذبون مناياهم كما يستعذب الظمان الماء الفرات، ولا يهدأ لهم بال إلا إذا نادوا إلى القتال.

كانوا عرباً، والعرب بطبيعتهم شجعان محاربون، انظر إلى قول معقل بن قيس الرياحي للإمام علي كرم الله وجهه: "أصلحك الله يا أمير المؤمنين. أنه كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء القوم مكان كل رجل منهم عشرة ليستأصلوهم: فيما أن يلقاهم عددهم فلعمري ليصبرن لهم فإنهم عرب".

أكسبتم هذه الشجاعة وهذا البأس الشديد والصبر على شدائد الحروب طبيعة بلادهم التي يعيشون فيها في الأراضي الموحشة بين الوحوش الكاسرة. وما كان بينهم في الجاهلية من الإغارات بعضهم على بعض، وزاد في شجاعتهم وبأسهم وإقدامهم على النزال ودربتهم على القتال ما باشروه من الحروب في الإسلام، ولا سيما ما وصلوا إليه من استعمال آلات الوقاية كالدرع والمغافر وغيرها.

ويدلك على ما لهم من تلك الصفات ما قاله البراء بين قبضة فيهم، لما أرسله الحجاج إلى المهلب ليستحقه على قتالهم، فشاهد من بأسهم وشدة مراسهم للحرب ما راعه، فقال للمهلب:

“ما رأيت قط أصبر ولا أبأس من القوم الذين يقاتلونك.”

وقال له أيضًا وللحجاج لما رجع إليه: رأيت قومًا لا يعين عليهم إلا الله، كما يدللك على ذلك أيضًا قول المهلب، للكلمي والسلمي اللذين بعثهما الحجاج إليه ليحرضاه على قتال الخوارج - وقد طعن عبيدة بن هلال أمامهما رجلًا من أصحاب المهلب فشك فحذه بالسر.

- كيف تقاتل قومًا هذا طعنهم؟

وقد كان رؤساء جيوشهم وقادة جنودهم بالدرجة العالية من البطولة والجلد والأيد والصلابة، مع سعة العلم بتدبير الحروب والتمرن على أعمالها وتمم الخبرة بحيلها ومكايدها كتعبية الجنود والخندقة عليهم وتموينهم بالأسلحة والذخائر وإثارة الحماسة فيهم، وإذكاء العيون على الخصوم واستطلاع أخبارهم وإفشاء الغلبة عليهم وما أشبه ذلك.

وقد ذكر ابن خلكان أن قطري بن الفجاءة أحد زعمائهم، خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجمي وبيده عمود خشب، فدعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من الأعداء، فحسر قطري عن وجهه، فلما رآه الرجل ولي هاربًا، فقال له قطري: إلى أين؟ فقال الرجل: لا يستحي الإنسان أن يفر منك.

وكان قطري شاعرًا بليغًا، وفارسًا مقدمًا، انظر إلى شعره، فإنه يمثل كل التمثيل:

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| من الأبطال ويحك لن تراعي   | أقول لها وقد طارت شعاعًا   |
| على الأجل الذي لك لم تطاعي | فإنك لو سألت بقاء يوم      |
| فما نيل الخلود بمستطاع     | فصبرًا في مجال الموت صبرًا |
| وداعيه لأهل الأرض داعي     | سبيل الموت غاية كل حي      |
| وتسلمه المنون إلى انقطاع   | ومن لا يغتبط يسأم ويهزم    |
| إذا ما عد من سقط المتاع    | وما للمرء خير من حياة      |

وقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكتراثه بجيوش الحجاج أن دخل الكوفة وطاف فيها، وقتل كثيراً ممن كانوا في مساجدها، وأدخل الفزع والهلع في قلوب أهلها حتى أغلقوا بيوتهم دونه.

وفي شبيب يقول الشاعر:

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدرًا      والريح عاصفة الموج يلتطم

### زعماء الخوارج

وكان كل زعماء الخوارج على هذا الغرار، بسالة وجرأة وتضحية، وكان الخوارج بهذه القوة البالغة، والبأس الشديد، والمعرفة التامة بأمر الحرب، يستغنون عن كثرة العدد ووفير العُدَد، وقد رأينا كيف أن مرداسًا وأصحابه - وكانوا لا يزيدون على أربعين رجلاً - هزموا جيش بن زرعة وكان عدد مقاتلته ألفين. فقال في ذلك شاعرهم:

ألفا مؤمن منكم زعتمم      ويقتلهم باسك أربعونا

وانظر إلى ما قاله في أصحاب شبيب، بعض أصحاب حبيب بن عبد الرحمن الحكمي، أحد قواد الحجاج، وكان جيشه ثلاثة آلاف، وكان أصحاب شبيب ثلاثين رجلاً فقط "لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة لأهلكونا" ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار ظاهرة أخرى لها خطورتها وأهميتها، وهي إيمان الخوارج بعقيدتهم، وبذلهم أنفسهم في سبيلها، ثقة منهم أن في ذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وقد كان لهذا الاعتقاد دائرة العظيم في بسالتهم وإسراعهم إلى الموت، والموت يهرب منهم، وفيما روي عن الخوارج من الأقوال، وحكي عنهم من الأفعال، ما يدل على بينة على أنهم كانوا يؤمنون إيمانًا قويًا بأنهم يحاربون في سبيل الله، هذا إلى ما تزيوا به من لباس التقوى، وتزينوا به من حلي الصلاح والنسك الزهد في متاع الحياة الدنيا، وغير ذلك مما يدل على زهدهم في الحياة الدنيا وحبهم في الآخرة، ورغبتهم في الوصول إليها والعمل في سبيلها.

هذا حوثة أول من خرج بعد قتل الإمام علي رضوان الله عليه، ودعاه أبوه إلى الطاعة والدخول في الجماعة فأبى، فأداره فصمم. فقال له: يا بني أجيئك

بابنك فلعلك تراه فتحن إليه. فقال: يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة اتقلب فيها على كعوب الرمح لشوقي مني إلى ابني!.

وقال أبو بلال مرداس بن أدية أحد رؤسائهم الكبار الأولين في عبد الله بن وهب الراسي قائد الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي كرم الله وجهه: ابعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا أحب بقاء أو أرجى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا فيا رب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى لا ألقى أولئكا وكان مرداس هذا مجتهداً كثير الصواب في لفظه، وكان من القشف والتنسك والعبادة بمكان عظيم، حتى انتحلته الشيعة والمعتزلة فضلاً عن الخوارج. وفيه يقول عمران بن حطان:

إذا ما عد من سقط المتاع يا رب مرداس اجعلني كمرداس  
تركنتي هائماً أبكي لمرزئتي في منزل موحش من بعد إيناس  
نكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

وكان عروة بن أدية اخو مرداس، مثل أخيه مرداس في الظهور بالعبادة والاجتهاد والتنسك، ولما قتله عبد الله بن زياد دعاه مولاه فقال: صف لي أمره. فقال: أأطلب أم أختصر؟ قال: بل أختصر.

قال: ما أتيته بطعام بنهار قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط.  
وقال قطري بن الفجاءة:

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم  
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

تأمل صياحهم بحضرة الإمام علي كرم الله وجهه، وبحضرة أصحابه، وتناديهم: لا تخاطبوهم ولا تكلموهم. وتهيئوا للقاء الرب، الرواح الرواح إلى الجنة. وروي أن رجلاً من الخوارج طُعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله وهو يقول: وعجلت إليك رب لترضى.

واعتبر مبلغ زهدهم في متاع الحياة الدنيا، بصياحهم على من أخذ رطبة سقطت من نخلة، وقذف بها في فمه، فلم يلبث من انتهارهم إياه أن لفظها. وبما روي عن جماعة منهم أنهم ساوموا ذميًّا على جني نخلة، فقال: هو لكم فقالوا: ما كنا لنأخذه إلا بثمن وغير ذلك - مما روى عنهم من هذا القبيل. وكانوا - على ما كانوا عليه من غلظ الأكباد على أعدائهم - في غاية الرقة والرحمة بعضهم على بعض، كما يرشدنا إليه وقوفهم على قبور أصحابهم بالنهروان، وبكاؤهم عليهم بكاءً طويلاً وترحمهم عليهم واستغفارهم لهم. وأخبار الخوارج مملوءة من أمثال هذه الآثار. ويجد المطلع على تاريخهم أنهم - مع ما قدمناه من تلك الأوصاف - كانوا على جانب عظيم من العلم والفهم، وبدرجة عالية من البلاغة والبيان: ذكروا أن عبد الملك بن مروان - وكان من أكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً وأحسنهم ديناً - أتى برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء علماً وفهماً، ثم بحثه ما شاء أرباً ودهياً. فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصراً محققاً. فزاده في الاستدعاء. فقال له: لتغتنك الأولى عن الثانية. وقد قلت فسمعت، فاسمع أقل. قال له: قل.

فجعل يبسط له من قول الخوارج. وزين له من مذهبهم بلسان طلق وألغاز بينة ومعان قريبة. فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته: لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم، ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق فقلت له: لله الآخرة والدنيا. وقد سلطني في الدنيا ومكن لنا فيها. وأراك لست تجيب بالقول، والله لأقتلنك إن لم تطع. فبينما عبد الملك في ذلك، إذ دخل عليه بانه مروان وهو يبكي لأن مؤدبه ضربه. فشق ذلك عليه. فأقبل الخارجي عليه وقال: دعه يبكي. فإنه أرحب لشدقه وأصح لدماغه وأذهب لصوته وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها. فأعجب ذلك من قوله عبد الملك. فقال له متعجباً: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟

فقال: ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيئاً..

فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله.

وقال يعتذر إليه: أولاً أن تفسد بالفاظك أكثر رعيتي ما حبستك.

ثم قال عبد الملك: من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله، فغير

بعيد أن يستهوي من بعدي.

ويروي أن عمران بن حطان رأس القعد من الصفرية، وخطيبهم وشاعرهم

نزل عند روح بن زنباع سمير عبد الملك بن مروان، وهو لا يعرفه. فكان روح لا

يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران إلا عرفه

وزاد فيه، فذكر ذلك لعبد الملك. فقال له: خبرني ببعض أخباره فخبره وأنشده.

فقال: ضيفك عمران بن حطان، اذهب فجنني به.

فرجع إليه فقال: أن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك.

فقال له: امض فإني بالأثر. فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره.

فقال عبد الملك: أما إنك سترجع فلا تجده. فرجع وقد ارتحل وخلف

فيها أبيات منها:

يا روح كم من أخي مثوي نزلت به      قد ظن ظنك من لحم وغسان

حقي إذا خفته فارقت منزله      من بعدما قيل: عمران بن حطان

قد كنت جارك حولاً ما تروعني      فيه روائح من أنس ومن جان

حتى أردت بي العظمي فأدركني      ما أدرك الناس من خوف ابن مروان

واعذر أخاك ابن زنباع فإن له      في النائبات خطوباً ذات ألوان

وكان نافع بن الأزرق ينتجع عبد الله بن عباس، ويتباحث معه في مسائل

كثيرة في التفسير واللغة ذكر المبرد جملة منها في الكامل وسائق الإمام الراغب في

سفينته طائفة عظيمة منها.

### الرأي في الخوارج

وليس من شك اليوم في أن الخوارج قد شوها محاسن الدين الإسلامي

تشويهاً غريباً. فإن هذا الإغراق في التأويل والاجتهاد أخرجهم عن روح الإسلام

وجماله واعتداله. وهم في تعمقهم قد سلكوا طريقًا ما قال به محمد "ص" ولا دعا إليه القرآن، وأما التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العمياء، والصالح الذي كانوا يزينون به في الظاهر كان ظاهر التأويل بادي الزخرفة، وقد طمعوا في الجنة وأرادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين غلوًّا أخرجهم منه، ومجازة الحد توقع في الضد. وقد تبسط عمر بن عبد العزيز في ذلك لما ناظر شوذب الخارجي وصاحب، إذ بعثهما إليه الخوارج فقال مخاطبًا لأنصارهم في شخصها:

"أنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها: فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى أن يخلو الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فمن قال ذلك حقن دمه وأحرز ماله ووجبت حرمة وأمن به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أسوة المسلمين وكان حسابه على الله. أفلمستم تلقون من خلع الأوثان ورفض الأديان وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فتستحلون ماله ودمه ويعلن عندكم؟ ومن ترك ذلك وأباه اليهود والنصارى وأهل الأديان فحرمون دمه وماله ودمه ويعلن عندكم؟ ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأديان فحرمون دمه وماله؟

وقد رأينا في تاريخهم الأول كيف قتلوا عبد الله بن خباب وامرأته، وكيف كانوا يستحلون أموال المسلمين ويحترمون أموال الذميين، وكيف كانوا يستعرضون الموحدين ويقتلون رجالهم ونساءهم وأطفالهم، وقد روي أنهم كانوا يلقون الأطفال في القدور وهي تفور وكانوا يعتقدون أن ذلك من الدين وأنهم ينالون به الثواب من رب العالمين، ولقد بعث تناقض أمرهم هذا من عجب ذلك الذمي الذي لم يقبلوا منه جني نخلته إلا بثمنه، مع أنهم قتلوا عبد الله بن خباب فقال:

- ما أعجب هذا أنقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا جني نخلته.

ولقد كان الناس حين يرونهم يعتريهم الفزع الأكبر ويرتاعون منهم أشد الارتياح. ويصيح بعضهم على بعض: الحرورية الحرورية ليهربوا منهم. وانظر ماذا كانوا ينقمون من المسلمين ومن ولاة أمورهم.

كانوا يزعمون أنهم محلون، أي مجبرون ما حرم الله كتحكيم الرجال في الدين وتعطيل الحدود وجباية الأموال من غير حلها، وإنفاقها في غير حقها وما مائل ذلك. وهو زعم باطل.

### الخوارج ثوريون

والحق أن الخوارج قوم ثوريون، قصر فهمهم عن حكمة الحكومة، ولم يهتدوا إلى مذهب سياسي يعتمدون عليه في الخروج على الولاة. فلما عجزوا عن مثل ذلك الطريق السياسي زعموا ذلك الباطل ليكون مبرراً لخروجهم على الحكام من طريق الدين وهو أشد تأثيراً في الناس وأسرعها في اجتذاب الأنصار لمن يدعو إليه، ألم تر أن أولهم وهو المخدج انتقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه، في قسمة بعض الغنائم، فضل بعض القوم على بعض؟ وإنما كان هذا التفضيل منه عليه الصلاة والسلام تأليفاً لقلوب الذين فضلوا، مع علمه برسوخ الإسلام في قلوب الذين قل عطاؤهم عن الأولين، فلم يفقه ذلك الخارجي هذه الحكمة العالية، وأن التمييز في هذه القسمة هو عين العدل لأنه الكفيل بالمصلحة العامة. لقد كان ذلك الخارجي يريد أن ينال نصيباً من المال فلما لم يستطع إلى ذلك سببياً ذهب به الحد إلى انتقاد القسمة من جهة العدل. ثم انظر إلى أولئك الذين أكرهوا علياً كرم الله وجهه على التحكيم حتى إذا حكم لى كره منه عظيم، ثاروا عليه وقالوا: لا حكم إلا الله. وتأمل في إجابته رضي الله عنه على ذلك بأنها كلمة عادلة يراد بها جور، وأنهم يريدون بها إبطال الإمارة، ولا بد من إمارة برة أو فاجرة.

ثم جاء الذين من بعدهم تحدوهم عقيدتهم الثورية الفوضوية وقالوا في أئمة المسلمين. أنهم يبيحون الدم الحرام والمال الحرام والفرج الحرام، ويجبون المال من غير حله وينفقونه في غير حقه والحق أقول: أنه من العسر جداً على العقل أن يقبل مثل هذه التهمة الشنعاء في المسلمين أيام كان الإسلام متحلياً

بثوبه القشيب ومتجليًا في نضرته الأولى. ولو أن أناسًا كان من حقهم مؤاخذه المسلمين على هذه المزاعم المخزية لكانوا العلماء والفقهاء. والقضاة. وقد كان منهم في تلك الأيام الجرم الغفير ممن لا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يهابون الموت في تقويم المعوج أيًا كان، وردع من يتعدى حدود الله كائنًا من كان كالشعبي وشريح الذي قضى على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، في درع سقطت منه والتقطها يهودي، ولم يقبل منه دعواه مع علمه بصدقه، ولم يقبل شهادة ابنه الحسن. ولما رأى اليهودي ذلك قال: "أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضيه فقضى عليه فرضي به. صدقت، أنها لدرعك سقطت منك يوم كذا وكذا...، فالتقطتها وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله" فوهب له على الدرع وأعطاه فرسًا وفرض له تسعمائة. فلم يزل معه حتى قتل يوم صفين. ومثل هشام بن هبيرة وأنس بن مالك والحسن البصري ومحمد بن سيرين وسالم بن عبد الله بن عمر، وفقهاء المدينة السبعة الذين عنهم انتشر العلم في الدنيا وإليهم مرجع الفتيا في العالم.

## تعاليم الخوارج ومذاهبهم وتشددهم

### تعاليم الخوارج

فإذا انتهينا من أمر الخوارج وغاراتهم وزحوفهم فنحن أمامنا هذه الفرق التي انبثقت عن تعاليمهم، وهو بحث عرضنا له في كتابنا (علي بن أبي طالب) ونعرض له اليوم بشيء من التفصيل قليل...

أثارت نظريات الخوارج وتعاليمهم عناية بعض المستشرقين الأوروبيين، فأسماهم (فان فلوتن) بالجمهوريين.

وهم في الواقع أقرب في مبادئهم إلى الجمهورية والشورى منهم إلى شيء آخر، ومبادئهم الديمقراطية متطرفة، ولا يصح أن يقال أنهم أصحاب المذهب الجمهوري لأن هذا المذهب قد اعتمده الإسلام قبلهم، وأقر الحكم شورى بين الناس، وكان أول ما بدأوا به بحث الخلافة، لأن العراك كان داميًا حولها، الدم يسيل في سبيلها، فقالوا: أن الخلافة حق لكل عربي حر، ولا يصح للخليفة أن يتنزل عنها إذا ما اختير لها، وإذا جار الخليفة استحلوا عزله وقتله إذا قضت الضرورة بذلك. ثم عمد الخوارج إلى تعديل نظريتهم الأولى في الخلافة، فأطلقوها بين المسلمين جميعهم لا فرق عندهم بين العربي وغير العربي شرط أن يكون مسلمًا عادلًا... ولعل سبب ذلك انضمام بعض المسلمين من غير العرب إليهم، فجعلوا عندئذ حق الخلافة شائعًا بين جميع المسلمين أحراراً أو عبيدًا... فخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تحصر الخلافة في آل محمد صلوات الله عليه..

وانضم إلى الخوارج وغذى صفوفهم عرب خلص من أبناء الصحراء، وبعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن كقبيلة بني تميم مثلاً، وأبطال القادسية، ورؤساء الجند وغيرهم وانضم إليهم بعض القراء من جند علي خصوصاً بعد فشل المسلمين وخيبة الأمل في حقن دماء المسلمين، ومن غريب أمرهم أنهم كانوا يغرقون في التدين إغراقًا ليس له ما يبرره، ويتأولون الأحكام الإسلامية تأويلًا لما يقل به محمد «ص»، ولا دعا إليه القرآن، وقد أحسس الخوارج وأدرك نفوسهم ما رأوه من سعي أولي الأمر الملحق لمصالحهم الخاصة، وأذاهم انهيار الشورى في السلام، وقبول سكان المدن الإسلامية بالملك العضوض.

## السياسة والدين

وتعاليم الخوارج منذ ظهورهم مزيج من السياسة والدين، فشعارهم (الحكم لله) شئى يمتزج بالدين والسياسة معاً، فلا يصح والحالة هذه أن يقال أن دعوتهم هذه دينية محضة أو سياسية محضة وظلت دعوتهم بسيطة حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا فيها كثيراً من التعاليم الجديدة، وذهبوا يتأولون الأحكام الدينية تأويلاً فيه كثير من الإغراق، والتعقيد كما قدمنا، فقالوا: إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد«ص» فحسب، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر، فهو كافر، وكذلك نرى أن إغراقهم في الدين كان على غرار إغراقهم في السياسة، وأنهم في ذلك قد شوهوا روعة الدين الإسلامي الذي كان يسراً لا عسراً، سهلاً هيناً...

وقد امتازوا بشدة تمسكهم بالقرآن واتباع أحكامه، وغلوا في ذلك غلواً شديداً، حتى لقد تأولوا آياته على غير حقيقتها، وعدوا مرتكب الكبيرة، بل مرتكب الصغيرة منافقاً كافرًا، وخرجوا على أممتهم للهفوة الصغيرة يرتكبها أحدهم، وتشدد كثير منهم في أمر مخالفيهم في الرأي من المسلمين، فعدوهم كفارًا، حتى ليحكي أن واصل بن عطا رأس المعتزلة وقع في أيديهم، فادعى أنه مشرك مستجير، إذ رأى أن هذا ينجيه أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم..

ولو تكلفوا الترويج لنظرياتهم دون إرهاق مخالفيهم، لتلطف التاريخ في شأنهم، ولكنهم أغرقوا إغراقاً هو أقرب إلى الإحراج منه إلى شئى آخر، فقد كانوا لا يرحمون المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني، وكانوا يأتون أفضح المنكرات وأكبر الكبائر، دون ما شفقة ولا رحمة، ثم يتحرمون عن تافه الأشياء وصغير الأمور.. ومثل هذا التناقض في أعمالهم كان كفيلاً مع الأيام بإفنائهم والقضاء عليهم، وهو ما أصبح أمراً واقعاً.

## الخوارج وفرقهم

وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة كانت تخالف كل منها الأخرى في تعاليمها كلها أو بعضها، وأشهر فرقهم:

### الأزارقة

وهم أصحاب نافع بن الأزرق المكنى بأبي راشد، وكان من أكبر فقهاءهم ولم تكن من الخوارج فرقة أكثر عددًا من جماعة الأزارقة ولا أشد شوكة، وقد كفر هو وأصحابه على ابن أبي طالب وجميع المسلمين؛ وقال نافع: أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدًا من غيرهم إذا دعاهم للصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم. وهم في نظره مثل كفار العرب وعبدة الأوثان. وقال عن بلادهم: أنها دار حرب. وحل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم. وكان لا يجيز التقية في قول ولا في عمل، وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة ممن كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه، أو عن الهجرة إليهم، وأوجب امتحان من ينضمون إليهم فكان يدفع إليه واحدًا من أسرى مخالفهم ويأمره بقتله فإن فعل صدقوه وإن أبي قالوا:

- هذا منافق ومشرك وقتلوه.

وهم يكفرون أيضًا مرتكب الكبير مستدلين بكفر إبليس الذي يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى. وزاد نافع على ذلك أن أسقط حد الرجم عن الزاني المحصن لأنه لم يرد عليه نص في القرآن، وأسقط الحد كذلك عن قذف الرجل المحصن، ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير... وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها.

### البيهسية

وهم أصحاب أبي بيهس بن جابر، ومن تعاليمه أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والولاية لأولياء الله. وكان يكفر الواقفية وهم الذين يقولون أننا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحرام أم حلال، لأنه يعتبر أن من ضمن الأشياء التي جاء بها

النبي والتي تجب معرفتها، المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها، ويقول أن هناك أشياء أخرى لا يجب على المسلم أن يعرفها إلى باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها. وكان يقول أن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل، أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم.

### الأباضية

وهم أتباع عبد الله بن أباض التميمي، ويختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج في أنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفهم؛ بل قالوا أنه يحل التزوج منهم، ويتوارث الخارجي وغيره. وهم إلى المسالمة إميل حتى قالوا: أنه لا يحل قتال غير الخوارج غيلة ولا سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال، فإذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل. أما الذهب والفضة أو غيرها فإنهم يردونه إلى أعدائهم، وكانوا يرون إن بلاد مخالفهم من مسلمين هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان ( يقصدون منها حاكم بني أمية أو غيره من الأمراء الجائزين)، فإنه دار بغي. كما قالوا: أن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة. موحد لا مؤمن، فهو كافر كفر نعمة الله عليه، وأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى أحداثًا وإبداعًا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازًا، ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب، بل أن الكافر مطالب بها أيضًا، وليس في القرآن تخصيص الأمر أو النهي بواحد منهما، وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم.

### الصفريّة

وهم أصحاب زياد بن الأصفر، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ماداموا مثقفين في الدين والاعتقاد. وقال أن التقية جائزة في القول دون العمل، ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتفكيرهم أو تخليدهم في النار؛ وفرق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لا حد عليها؛ فلم يكفر مرتكب الأولى، وإنما كفر مرتكب الثانية. هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج وأن النظر إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعًا في الحكم على مخالفهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان. فلا عجب

إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم. وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة البطولة الفذة، وشغلوا - كما رأينا- الحزب الأموي وغيره مدة قليلة من الزمن حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمنًا غاليًا من الأرواح والأموال.

### رأي نيكلسون

ويرى الأستاذ نيكلسون «إن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم، وقد لانت قناتهم قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود أفكارهم، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستئصال شأفتهم.

«ويرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين». وفيما يقول الأستاذ نيكلسون بعض الصواب وقد ذكر الطبري عن شبيب الخارجي وقد انتهى إلى إحدى المدن، فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها، فساروا حتى أتوا دار العامل: ونادوا: أجيبيوا الأمير، فقالوا: عاملها، فساروا حتى أتوا دار العامل: ونادوا: أجيبيوا الأمير، فقالوا: أي الأمراء؟ قالوا: أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيبًا، فاغتر العامل بذلك وخرج إليهم، فضربوا عنقه، وقبضوا على ما كان في دار الإمارة من مال ولحقوا بشبيب، فلما انتهوا إليه قال: ما الذي اتيموا به؟ قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال، والمال على دابة في بدره.

فقال شبيب: أتيمونا بفتنة للمسلمين. هلم الحربة يا غلام. فخرق بها البدر وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدرها حتى وردن الصراة؛ ثم قال: أن بقى شيئ فاقذفه في الماء....

وفي هذا ما يدل على أنهم في الواقع كانوا أبعد الناس عن المال والعمل، وأنهم كانوا يروجون لمذهبهم، ويعملون لعقيدتهم.

## كره العراقيين لسياسة الحجاج وشدته ونقمتهم عليه

### توسع سلطة الحجاج

كانت سنة ٧٨ للهجرة -٦٩٧ شمسية - سنة خير وسلام على الإمبراطورية العربية، فقد وفق قواد الحجاج إلى القضاء على الخوارج في مختلف ساحات القتال، فاستتب السلام وفشا الأمن، وعاد الناس إلى متاجرهم وأعمالهم، وانصرف القواد والجند إلى الراحة بعد عناء الحرب وكر الزحوف.

ورأى عبد الملك بن مروان تقديرا لجهود عامله، وتعريزا لشأنه، إن يضم إليه خراسان وسجستان وكان عامله على الأولى أمية بن عبد الله، لا يقدم خراجها إلى الخزانة العامة في دمشق إلا غرارا، بينما الحجاج على العكس من ذلك كان لا يتأخر أبدا عن تقييم خراج البلاد التي كانت تحت حكمه وسلطانه، ومن هذا التاريخ ٧٨ للهجرة، حتى موته، ظل الحجاج - أي مدة سبع عشرة سنة - حاكما مطلقا على الأمصار الشرقية، للإمبراطورية العربية، كان يحكم العراقيين، وفارس وكرمان، وسجستان وخراسان، وضمت إليه بعد ذلك عمان واليمن والبلاد العربية، ثم انصبت عليه ثروة ما وراء النهرين حتى حدود السند.

وفي هذه السنة عهد الحجاج إلى المهلب بولاية خراسان، وإلى عبيد الله ابن أبي بكره بولاية سجستان، فعهد المهلب إلى ابنه حبيب بالقيام مقامه، بأعباء هذه الولاية، ريثما يتمكن من إنهاء أعماله في العراق. وكان الحجاج في الوقت نفسه يطالبه بخراج الأهواز، وقدره مليون درهم، والظاهر أن المهلب كان من هؤلاء الأمراء الذين يتلطفون كثيرا في البذل، ويغرقون في العطاء، فلما طالبه الحجاج بالخراج المتأخر، صعب عليه دفعه، إذ لم يكن عنده شيء منه، فقام المغيرة ابنه بدفع النصف، وساعده مولى له ببعض الباقي وباع المهلب حلي امرأته فتمكن بذلك من دفع المبلغ المطلوب.

### ثورة مطرف بن المغيرة

ومن الحق أن نختم حديث الخوارج بما كان من مطرف بن المغيرة بن شعبة، وكان بنو المغيرة بن شعبة صلحاء شرفاء بأنفسهم مع شرف أبيهم ومنزلتهم من قومهم، فلما قدم الحجاج العراق ورآهم على أنهم رجال قومهم، استعمل

عروة على الكوفة، ومطرفا على المدائن وحمزة على همدان، وكانوا في أعمالهم أحسن الناس سيرة، وأشدهم على المرئيين.

وكان مطرف على المدائن عند خروج شبيب وقربه منها، فكتب إلى الحجاج يستمده، فأمده بسيرة بن عبد الرحمن بن مخنف وغيره، وأقبل شبيب حتى نزل بهرسير، وكان مطرف بالمدينة العتيقة وهي التي فيها أيوان كسرى فقطع مطرف الجسر، وبعث إلى شبيب يطلب إليه أن يرسل بعض أصحابه لينظر فيما يدعون. فبعث إليه عدة منهم، فسألهم مطرف عما يدعون إليه.

فقالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه الذي نعمنا من قومنا الاستئثار بالفي وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية. فقال مطرف: ما دعوتكم إلا إلى الحق، وما نقتم إلا جورا ظاهرا، فبايعوني على ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمركم.

فقالوا: أذكره فإن يكن حقا نجيبك إليه.

قال: أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة على أحداثهم، وندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون من يرتضون على مثل هذا الحال الذي تركهم عليها عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت إنما يراد بالشورى الرضا من قريش، رضوا، وكثر تبعكم وأعاونكم. فقالوا: هذا ما لا نجيبك إليه.

وقاموا من عنده، وترددوا بينهم أربعة أيام فلم تجتمع كلمتهم، فساروا من عنده، وأحضر مطرف نصحاءه وثقاته فذكر لهم ظلم الحجاج وعبد الله وأنه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناهضتهم، وأنه يرى ذلك دينا لو وجد عليه أعوانا، وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب وأنهم لو تابعوه على رأيه، لخلع عبد الملك والحجاج ... واستشارهم فيما يفعل.

فقالوا له: اخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد.

وقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه المغيرة بن شعبة:

- والله لا يخفى على الحجاج ما كان بينك وبينهم كلمة واحدة، وليزاد

على كل كلمة عشرة أمثالها، ولو كنت بالسحاب لا لتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالنجاء النجاء. فوافقه أصحابه على ذلك فسار إلى المدائن نحو الجبال. ثم ذكر مطرف لأصحابه بالدسكرة ما عز عليه ودعاهم إليه، وكان رأيه خلع عبد الملك والحجاج، والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوه، فبايعه البعض على ذلك، ورجع عنه البعض، وكان ممن يرجع سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف فجاء إلى الحجاج، وقاتل شيبيا مع أهل الشام، وسار مطرف نحو حلوان، ثم إلى همدان، وبها أخوة حمزة، فأرسل إليه يستمده بالمال والسلاح، فأرسل إليه أخوه سرا ما طلب، وسار مطرف حتى بلغ (قم وقاشان) وبعث عماله على تلك النواحي، وأتاه الناس، وكتب البراء بن قبيصة وهو عامل الحجاج على أصبهان إليه يعرفه حال مطرف ويستمده، فأمده بالرجال بعد الرجال على دواب البريد، وكتب الحجاج إلى عدي بن زياد عامل الري يأمره بقصد مطرف، وأن يجتمع هو والبراء على محاربتة، فسار عدي من الري فاجتمع هو والبراء، وحاربوا مطرفا فكسروه وقتل مطرف...

والواقع أن هذه هي المحاولة الثانية التي يحاول فيها بعض وجوه أهل العراق الثورة على الحجاج، وقد قصصنا ثورة الجارود، وإذا كان الجارود قد ثار على الحجاج، لما اعترم هذا انقاص العطاء، فإن مطرفا ثار عليه لمذهبه السياسي، وبطشه وسوء سيرته، واجتماع مطرف إلى الخوارج، واستماعه إلى كلامهم، يدل على أنه كان يؤمن ببعض مبادئهم، أو أنه كان يحاول استمالتهم إلى تعضيده، لما رآه من فتكهم وبأسهم.

### ابن الأشعث والحجاج

فإذا أشرفت سنة ٧٩ للهجرة، رأينا الحجاج يفكر في القيام بالغزوات في الشرق ومحاربة ملك كابول، روتبيل التركي الذي كان لا يدفع الجزية المفروضة عليه إلا غرارا، فأوغر ذلك صدر الحجاج عليه فبعث إلى عبيد الله بن أبي بكره عامله على سجستان أن يناجزه وأن لا يرجع عنه حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه، ويقيد رجاله، فسار عبيد الله في أهل البصرة وأهل الكوفة، ودخل بلاد رتبيل، فأصاب من الغنائم ما شاء، وهدم حصونا، وغلب على أرض من أراضيهم،

وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضا بعد أرض، حتى أمعنوا في بلادهم، ودنوا من مدينتهم، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخا، فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب، فارتد الغزاة منهم وتراجعوا بعد أن حدثت بينهم موقعة صغيرة لم تكن بذات شأن، ولا كبير أمر.

وأغضب الحجاج تراجع جنوده، وكتب إلى عبد الملك بن مروان ينبئه بالأمر، ويطلب منه الإذن ليرسل إلى رتبيل جيشا قويا، مخافة أن يدخل في روعه أن الإمبراطورية الإسلامية تعجز عنه، أو لا تستطيع الوصول إليه، فيغرق في سرفه، ولا يبعد أن يهدد الإمبراطورية، وفي هذا ما فيه من الخطر الداهم، والشر العظيم. فأذن له عبد الملك في ذلك، فأخذ الحجاج في تجهيز الجيش، وأخذ من أهل الكوفة عشرين ألفا ومن أهل البصرة مثل ذلك، وأعطى الناس عطياتهم كاملة غير منقوصة، وأنفق فيهم الأموال، وأنجدهم بالخيال والسلاح الكامل، ولما فرغ من ذلك، عين عبد الرحمن بن محمد الأشعث قائدا عليهم، فسار عبد الرحمن بهذا الجيش الكبير حتى قدم سجستان، فجمع أهلها فخطبهم وقال:

- أن الحجاج ولاني ثغركم، وأمري بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم فإياكم أن يتخلف منكم أحد فتمسه العقوبة، فعسكروا مع الناس وتجهزوا.

وسار بن الأشعث بجيشه نحو بلاد رتبيل، فلما بلغ هذا خبره، أرسل يعتذر ويبذل الخراج، فلم يقبل منه وسار إليه، ودخل بلاده وترك له رتبيل الأرض بعد الأرض، والحصن بعد الحصن، وعبد الرحمن يحوي ذلك، وكلما حوى بلدا بعث إليه عاملا وجعل معه أعوانا وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، ووضع المسالح بكل مكان خطر، حتى إذا جاز أرضا كثيرة، وملأ الناس أيديهم من الغنائم، منع الناس من الوغول في أرض رتبيل وقال:

- نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم نجيبها ونعرفها، ويجتري المسلمون على طرقها، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها من بلادهم إن شاء الله حتى نقاتلهم في آخر ذلك على كنوزهم وزراريهم، وأقصى بلادهم حتى يهلكهم الله تعالى. ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه، وبما يزيد أن يفعل..

## أول الاختلاف

فلما أتى كتابه إلى الحجاج كتب إليه: أن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة، ويستريح إلى المودعة، قد صانع عددا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم عظيما، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم.

وكتب إليه الحجاج كتابا ثانيا يمثل ذلك، وكتبا ثالثا، يقول له فيه:

- إن مضيت لما أمرتك، وإلا فأخوك اسحق بن محمد أمير الناس فدعا عندئذ

عبد الرحمن بن الأشعث الناس وقال لهم؟

- أيها الناس إني لكم ناصح ولصالحكم محب، ولكم في كل ما يحيط به

نفعكم ناظر، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضىه ذوو أحلامكم وأولو التجربة منكم، وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج، فأتاني كتابه يعجزني وضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم، وآبي إذا أبيتتم.

فثار إليه الناس وقالوا: بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع

وتكلم بعض ذوي الرأي فقالوا بخلع الحجاج ومبايعة عبد الرحمن ابن الأشعث، ومحاربة الحجاج وإخراجه من العراق، وتبعهم الأمراء وقادة الجند، والناس على اختلافهم، فلما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبد الملك. بخر عبد الرحمن، وسأله أن يعجل في بعث الجنود إليه، ونزل الحجاج إلى البصرة، ثم خرج منها إلى (تستر) فالتقت طلائعه بطلائع ابن الأشعث، فانهزم رجال الحجاج أمامهم خبر الهزيمة الحجاج عاد إلى البصرة، وتبعه أصحاب ابن الأشعث فقتلوا منهم وأصابوا بعض أثقالهم، فترك عندئذ الحجاج البصرة فدخلها ابن الأشعث، فبايعها أهلها جميعهم، وكان السبب في سرعة بيعتهم معاملة الحجاج لمن أسلم من أهل الذمة، وتوزعوا في الأمصار، فكتب الحجاج إلى البصرة وغيرها يقول: أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية، فجعلوا يكون ولا يدرون أين يذهبون، فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج.

## الاتفاق مع رتبيل

وإذا فنحن أمام ثورة عراقية ثالثة لعل المسؤؤل عنها في هذه المرة هو الحجاج نفسه لأن الزخوف والحروب في بلاد بعيدة وأرض صعبة جبيلة، لا يجب أن يقرر أمرها وفاقا لأهواء السياسة وإنما يترك ذلك إلى القائد في ساحة القتال، وقد رأينا كيف أن عبد الرحمن بن الأشعث قائد الجيش رأى عدم الوجود في أرض العدو صيانة لأرواح جنده، وتعويدا لهم على مجابهة الملاحم في هذه الأرض الصعبة البعيدة خصوصا وقد سبق عبد الرحمن بن الأشعث قائد من قواد الحجاج أوغل في أرض العدو فسدوا عليه طريقه، وأحاطوا به من كل جانب، ولم ينج من عدوه إلا بعد صعوبات كثيرة، وخسائر عظيمة في الأرواح والأموال... وكان هذا الفشل حافزا لعبد الرحمن على أن لا يعرض جنده إلى مثل هذا الفشل، ومن ذلك كان تقديره لموقفه وإمعانه في التؤدة إمعانا أنكره الحجاج عليه... وعده مخالفا لرأيه، وخروجا عن طاعته...

ويذكر لنا المؤرخون فيما يذكرون عن ابن الأشعث والحجاج أن ابن الأشعث كان تياها فخورا، وأنه كان يعتقد أبدا أنه فوق كل أمير، ويقول ابن الأثير: أن الحجاج كان يبغضه ويقول لأصحابه:

- ما رأيت قط إلا أردت قتله.

وسمع الشعبي من الحجاج ذلك ذات يوم فأخبر ابن الأشعث به فقال هذا:

- والله لا حاولن أن أزيل الحجاج عن سلطانه.

ولما أراد الحجاج أن يبعثه على ذلك الجيش أتاه أحد أعوانه فقال له:

- لا تبعثه، فوالله ما جاز جسر الفرات، فرأى لو عليه طاعة، وأني أخاف خلافه.

فقال الحجاج: هو أهيب لي من أن يخالف أمري...

وذكر غيره من المؤرخين قصصا أخرى على غرار ما ذكرنا، فإذا كان كل هذا

صحيحا، فكيف بعث به الحجاج قائدا للجيش دون غيره من أهل الطاعة؟؟

هذا ما نحار في تعليقه إلا أن يكون الحجاج من الإيمان نفسه والاعتداد

بسلطانه بحيث ما كان يظن إلى أن أحدا يستطيع مخالفته فيه!...؟

وتشرف سنة ٨٢ للهجرة والخلاف بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث لا يزال على حاله، وأهل العراق مع ابن الأشعث يحاربون جنود الحجاج من أهل الشام، ويناجزونهم، حتى تمكن جند الحجاج من كسر شوكة العراقيين وهزموهم فانسحبوا نحو الكوفة، وتبعتهم طائفة من أهل البصرة، فلما علم أهل الكوفة بقدوم ابن الأشعث إليهم أخرجوا عامل الحجاج منها واستقبلوا ابن الأشعث استقبالا حافلا... وهنا يذكر لنا المؤرخون فيما يذكرونه من أخبار هذه المعركة، أن الحجاج قتل من أهل العراق أحد عشر ألفا خدعهم بالأمان، وأمر مناديا فنادى لا أمان لفلان بن فلان، فسمى رجالا، فقال العامة:  
- قد أمن الناس، فحضروا عنده، فأمر بهم فقتلوا...

### دير الجماجم

ولما انتهى الحجاج من أمر الناس في الزاوية والبصرة، مشى إلى الكوفة لقتال ابن الأشعث فنزل (دير قرة)، وترك ابن الأشعث الكوفة فنزل (دير الجماجم)، واجتمع إلى عبد الرحمن أهل الكوفة وأهل البصرة والقراء وأهل الثغور والمسالح، اجتمعوا جميعهم على حرب الحجاج لبغضهم له، وكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم، وجاءت للحجاج الإمدادات من الشام بكثرة عظيمة، وأخذ الناس يقتتلون، وقد خندق كل منهم على نفسه.

ونظر عبد الملك إلى هذه الثورة الجديدة، فخاف منها على ملكه وعرشه فقال: إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج نزعناه، فإن عزله أيسر من حربهم، ونحقن بذلك الدماء.

وبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان، وكان محمد بأرض الموصل، إلى الحجاج في جند كثيف، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج، وأن يجريا عليهم أعطياتهم، كما يجري على أهل الشام، وأن ينزل عبد الرحمن بن الأشعث أي بلد أراد من العراق، فإذا نزله كان واليا عليه ما دام حيا، وعبد الملك خليفة، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك، عزل الحجاج عنها، وصار

محمد بن مروان أمير العراق، وإن أبي أهل العراق قبول ذلك، فالحجاج أمير الجماعة، ووالي القتال، ومحمد بن مروان وعبد الله بن الملك في طاعته. وما كاد الحجاج يعلم بسياسة عبد الملك هذه ورغبته في إنهاء النزاع وقتل الخصومة، حتى اضطرب اضطراباً عظيماً وأسقط في يده، ولم يكن أمراً أشد عليه، ولا أوجع لقلبه من ذلك، فخاف أن يقبل أهل العراق عزله، فيعزل عنهم، فكتب إلى عبد الملك يقول: «والله لو أعطيت أهل العراق نزعي، لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر ويبلغك وثوب أهل العراق مع الاشر على عثمان بن عفان، وسؤاله نزع سعيد بن العاص، فإذا نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إلى عثمان فقتلوه، وأن الحديد بالحديد يفلح. ومن هذا نرى اختلاف الرجلين في سياستهما، فعبد الملك كان يرغب السياسة الوادعة والاتفاق، والحجاج ينادي بسياسة الشدة والقمع، وحجته ما أورده في كتابه، ولكن عبد الملك أبي إلا أن يعرض عزله على أهل العراق، فلما اجتمع عبد الله ومحمد مع الحجاج، خرج عبد الله بن عبد الملك إلى أهل العراق وناداهم قائلاً: - يا أهل العراق، أنا ابن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا..

وقال محمد بن مروان:

- أنا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا، وذكر لهم شروط

الصلح والموادعة وحقن الدماء.

فقال أهل العراق: نرجع العشيّة.

## الاجتماع

واجتمع الناس عند عبد الرحمن بن الأشعث فقال لهم:

- قد أعطيتكم أمر انتهازكم اليوم إياه فرصة، وأنكم اليوم على النصف، فإن

كانوا اعتدوا عليكم بيوم الزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فأقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقضون، فوالله لازلتم عليه جراء وعندهم أعزاء أبدا ما بقيتم إن أنتم قبلتم فوثب

الناس من كل جانب فقالوا:

- أن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلّة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القوية لا والله لا نقبل. وأعادوا خلعه ثانية.

فقال عندئذ عبد الله بن عبد الملك، ومحمد بن مروان للحجاج:

- شأنك بعسكر وجندك واعمل برأيك فأنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع.

فقال الحجاج: قد قلت لكم أنه لا يراد بهذا الأمر غيركم.

وعاد القتال سيرته الأولى، والقوم يتزاحفون كل يوم ويقتتلون وأهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها، وهم في خصب، وأهل الشام في ضنك شديد قد غلت عليهم الأسعار، وفقد عندهم اللحم كأنهم في الحصار.

ودام القتال بين أهل العراق وجنود الحجاج بالموضع المعروف بدير الجماجم طويلا، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين، فوقعت بينهم أكثر من ثمانين وقاعة دارت الدائرة بعدها على ابن الأشعث، فهرب إلى البصرة حيث لحقه الحجاج ودارت عدة معارك بينهما ثم انهزم ابن الأشعث إلى سجستان حيث استقبله رتييل استقبالا حسنا وأنزله عنده وأكرمه وعظمه، وكان رجال عبد الرحمن وأنصاره من الذين هربوا من وجه الحجاج قد وصلوا في هذا الحين - أواخر سنة ٨٣ للهجرة - إلى سجستان، ويقدرهم بعض المؤرخين بستين ألفا وهو عدد نعتقد أنه مبالغ به، وإن كانوا لا يقلون عن بضعة آلاف، وسألوا عبد الرحمن أن يأتيهم، فقدم إليهم، فقالوا له:

- أخرج بنا عن سجستان إلى خراسان.

فقال لهم: إن بها يزيد بن المهلب وهو رجل شجاع ولا يترك لكم سلطانه، ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشام، فيجتمع علينا أهل خراسان وأهل الشام. فقالوا: لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا أكثر ممن يقاتلنا.

فرضي عبد الرحمن بما دعوه إليه، ودخل خراسان، فبعث إليه يزيد بن المهلب عامل الحجاج فيها أن يخرج منها وذكر له فيما ذكره من كتابه أنه يكره أن يحاربه ويقاتله، فتردد ابن الأشعث في أمره، ثم أخذ يجبي الخراج فمشى إليه يزيد وحاربه، فلم يكن بينهما كثير قتال، وتفرق أصحاب

عبد الرحمن عنه، وصبر وصبرت معه طائفة ثم انهزموا، وأسر يزيد بعضهم وأنفذهم إلى الحجاج بعد أن استبقى عنده بعض من كانوا يمتون إلى قبيلته بحبال من العصبية أو النسب.

### موت ابن الأشعث

ومضى ابن الأشعث على وجهه مع بقية أصحابه حتى انتهى إلى بلاد رتييل ثانية، فحذره أصحابه من رتييل هذه المرة وقالوا: قد يكتب له الحجاج يرغبه ويرهبه فإذا هو قد بعث بك إليه أسيرا أو قتلك وأصحابك، فحمد رأيهم ودخلوا حصنا تحصنوا فيه، وقدم عليهم عماره بن تميم في جند من جنود الحجاج فحاصرهم فامتنعوا حتى أمنهم فخرجوا إليه، فوفى لهم، وهنا يختلف المؤرخون في مصير ابن الأشعث فبعضهم يقول أن رتييل قبض عليهم وقطع رأسه وأرسله إلى الحجاج، والبعض يقول أنه أصيب بسهم في أثناء المعركة فمات، فأرسل رتييل إليه من قطع رأسه قبل أن يدفن، وأرسله إلى الحجاج وقيل أن رتييل لما اتفق مع رسول الحجاج على تسليم ابن الأشعث إليه مقابل إعفاء الحجاج رتييل من الخراج سبع سنوات، وقيل عشرين، أرسل رتييل إلى عبد الرحمن وثلاثين من أهل بيته فحضروا فقيدهم وأرسلهم إلى عمارة قائد جند الحجاج، فألقى عبد الرحمن نفسه من سطح قصر فمات فأخذ رأسه وسيره إلى الحجاج فسيره إلى عبد الملك...